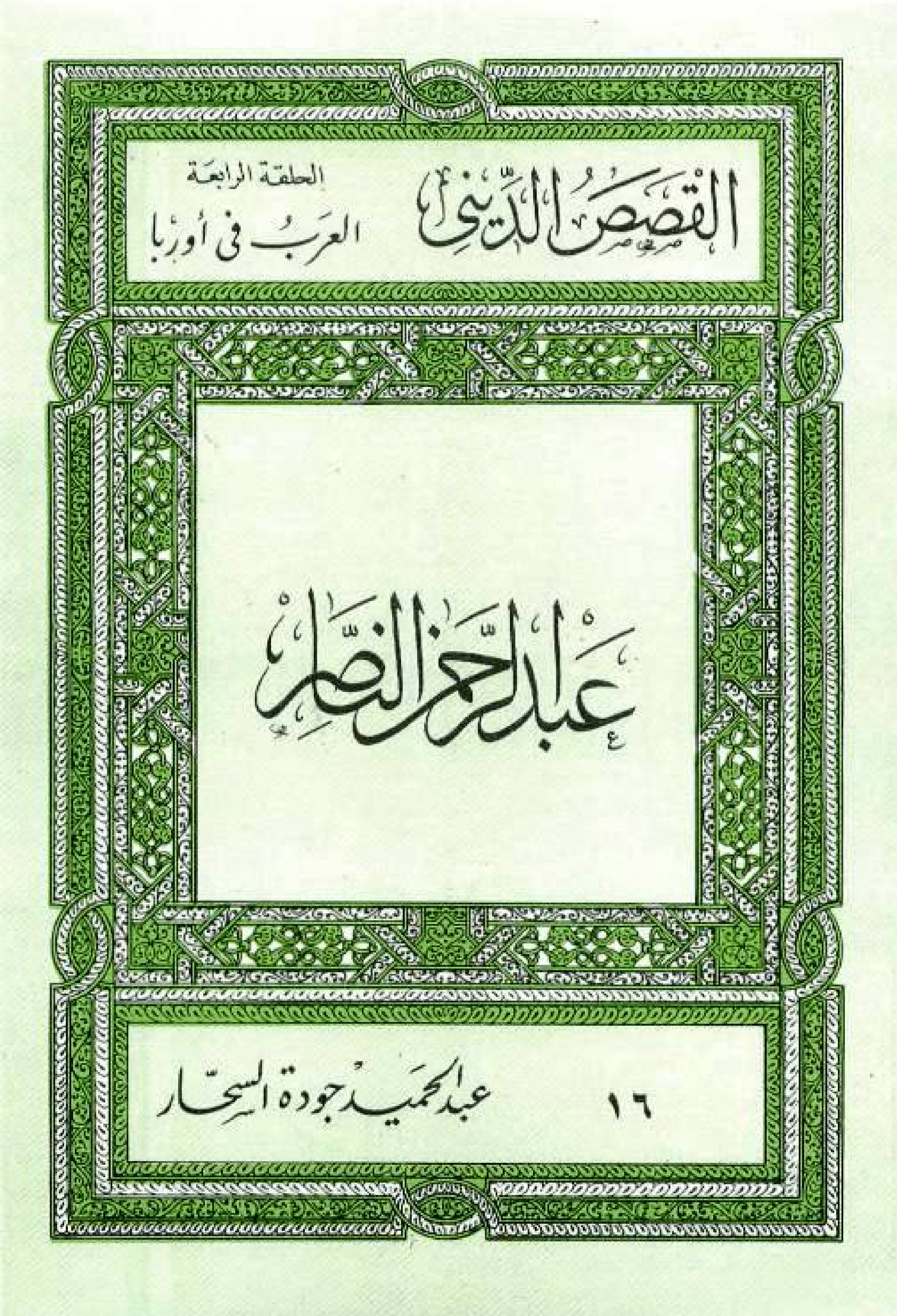


القصص الديني
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا
عبد الرحمن الناصر
عبد الحميد جودة السحار
١٦

١

اضطربت الأمورُ فى الأندَلُس وراح الثُّوّارُ يُعلِنونَ العِصيانَ فى كلِّ مكان ، وصارَتِ الأندَلُسُ ميدانًا لكلِّ طامِع من الوُلاة ، بالاستقلالِ بما تحتَ يدِه من الأقاليمِ والبلاد ، وكانَ عُمَرُ بنُ حَفصُونَ أوّلَ من ثارَ على أمراء الأندَلُس ، أيّامَ الأميرِ محمَّدِ ابنِ عبدِ الرَّحمن الأوسط . وقد انضمَّ إليه كثيرٌ من الجند ، وابتَنى قلعة ، واستَولَى على غَربِ الأندَلُس . وفى أثناء اندِلاعِ لهيبِ هذه الفِتَن ، تولّى عبدُ الرَّحمنِ النّاصرِ الأندلس .

وكان عبدُ الرَّحمنِ شابًّا يتطَلَّعُ إلى المَجد ، مُولَعًا بالكِفاح ، فما إن ماتَ عبدُ اللّه بنُ محمَّدِ

ابنِ عبد الرّحمن ، أميرُ الأندلس ، حتّى تولّى عبدُ الرّحمنِ حَفِيدُه الأمرَ ، وأعمامُه وأعمامُ أبيهِ حاضرون ؛ ولَعلّهم لم ينازعُوه الأمر ، لأنّ الفِتنَة كانت قد طبّقَتْ آفاقَ الأندَلُس ، والخِلافُ فاش في كل ناحيةٍ منها ، وقد لاحَ أنّ مُلكَ بنى أمَيَّةَ في الأندَلس ، يلفظُ آخِرَ أنفاسِه .

وعَزَمَ عبدُ الرّحمنِ على أن يُعيدَ الهَيبَةَ إلى أمراءِ الأندَلس ، وإن اقتَضَى الأمرُ أن يفتتِحَها مدينةً مدينة . فَعَبَّأَ الجيوش ، وبَعثَ عمّه المُظَفّرَ إلى ابنِ حَفصُونَ الثّائِر ، الذى تحالَفَ مع حَنشُو غرسيه مَلِكِ نابار ، وأوردُونَةَ ملكِ لِيون ، ومقَاتلة الفرنسيّين .

والتقى جيشُ عبدِ الرّحمنِ بجيوشِ ابنِ حَفْصُونَ وحُلفائِه ، فانتَصَرتْ جيوشُ عبدِ الرّحمن ، وقطَعَتْ جبالُ البيرانِيه ، واكتَسَحَت جانبًا عظيمًا من غَشقُونْيَة ، وراحتْ تقرَعُ أبوابَ طلوزَة ،

واستَمرَّتْ فى قِتالِها المُظَفَّرِ حتى ماتَ ابنُ حَفصُونَ فى حِصارِه .

٢

وكان أحمَدُ بنُ إسحاقَ وزيرًا لعبدِ الرَّحمن ، وقد غَضِبَ عبدُ الرَّحمنِ عليه ، فقتَلَه ، فثارَ أخوهُ أمَيَّةُ ابنُ إسحاق ، بمدينةِ شَتْرِين ، والتجأ إلى رُودْمِيرَ ملكِ الجَلالِقَة ، فجمَعَ عبدُ الرَّحمنِ جيوشَه وانطلَقَ فى أزيَدَ من مائةِ ألفٍ من النّاس ، إلى مدينةِ سَمُّورَة ، عاصِمةِ الجَلالِقَة .

كانت سَمُّورَة مدينة حَصِينة ، عليها سَبعةُ أسوار من أعجَبِ البُنيان ، وبينَ الأسوارِ حوائِطُ قصِيرةٌ ، وخَنادِقُ ومِياهٌ واسعة ، فهجَمَ عبدُ الرَّحمنِ بجيُوشِهِ على المدينة ، وافتتحَ منها سُورَين ، وعَبَرُوا الخَندَق ،

وإذا بجُيوشِ الجلالِقةِ تنقَضُّ عليهم ، وتُعمِلُ سيوفَها فيهم ، فقُتلَ من المسلمينَ خمسونَ ألفا .

رأى أمَيَّةُ بنُ إسحاقَ إخوانَه يسقُطونَ صَرعَى ، فاستيقَظَ ضَميرُه ، وقرَّر رودميرُ أن ينطَلِقَ خلفَ المسلمينَ المُنهَزمين ، ليقضِيَ عليهم ، فدنا منه إسحاق ، وخوَّفَه الكَمِين ، ورغَّبه فيما كان في عسكَرِ المسلمينَ من الأموالِ والعُدَّةِ والخزائِن ، فهُرِعَ جَيشُ رودميرَ إلى الغَنائِم ، فتَمَّ للنّاجِينَ من المسلمينَ الانسحابُ في سلام .

وتخَلَّصَ أميَّةُ بنُ إسحاقَ من رودمير ، وذهبَ إلى عبدِ الرَّحمن ، فقَبلَه أحسنَ قَبول . وجَهَّزَ عبدُ الرَّحمنِ بعد هذه الوقْعَةِ عساكِرَ مع عِدَّةٍ من قُوَّادِه إلى الجَلالِقة ، فسارَتِ الجُيوشُ تطلبُ ثأرَ الذينَ قُتِلوا عندَ الخَندَق . ودارت بينَ المسلمينِ والجَلالِقةِ معارِكُ رهِيبة ، هلكَ فيها من الجلالِقةِ ضِعْفُ ما قُتلَ من المسلمينَ في الوقعةِ الأولى .

وافتتحَ عبدُ الرَّحمنِ الأندلُسَ مدينةً بعدَ مَدينة ، وقتلَ حُماتَها ، واستَذَلَّ رجالَها ، وهدَمَ مَعاقِلَها ، حتى دانت له الأندلُسُ جميعا .

٣

رأى عبدُ الرَّحمنِ استبدادَ مَوالِى التُّركِ على بنى العَبَّاس ، وبلغَه أنَّ الخَليفةَ العبَّاسىَّ المُقتَدِرَ قد قَتَلَه مَولاهُ مُؤنِس ، فى ثَورَةٍ جامحةٍ اكتَسَحَتْ بغداد ، فَتَيَقَّنَ أنَّ أمرَ خُلفاءِ بنى العبَّاسِ قد هانَ ، وأنَّه أحقُّ بالخِلافَةِ منهم ، فتسَمَّى بأميرِ المؤمنين ، وتلقَّبَ بألقابِ الخِلافة ؛ فأعادَ إلى الأندلُس عزَّها ، وأوصلَها إلى أعلَى ذُرا المَجد ، وحَفِظَ للخِلافةِ هَيبَتَها ووقارَها ، بعدَ أن ذَلَّت فى آخِرِ أيَّامِ خُلفاءِ بنى العَبَّاس .

وتغَلَّبَ الألمانُ فى ذلكَ الوقتِ على المجار ، فتنفَّستْ سويسرَةُ نسيمَ الحُرِّيَّة ، ولكنَّ البُروفانسَ

والدُّوفينَ وجانبًا من جبالِ الألب ، وبقِيتْ تحتَ حُكمِ العرب . وصارَ « أوتُون » ملكُ جرمانية ، أعظمَ ملوكِ أوربَّا ، فراحَ يتقرَّبُ من عبدِ الرَّحمنِ النَّاصِر ، ويبعثُ إليهِ الوُفُودَ تَوَدُّدا .

وبلغَتْ قُرطُبةُ فى عهدِ عبد الرَّحمنِ شأوًا عظيمًا فى المجد ، وانتشرتْ فيها العلوم ، والمعارف ، والصَّنائِع ، والفنون ، والسِّياسة ، حتَّى أدهَشَت أوروبَّا بعظَمتِها ، وحتَّى صارَ عبدُ الرَّحمنِ قِبلَةَ ملوكِ العَصر ؛ فراحَ البابا يُراسِلُه ، وبسطَ إمبراطورُ القُسطنطِينيَّة ، وأمراءُ أسبانيا ، وملوكُ فرنسا ، وألمانيا وبلادِ الصَّقالِبة ، أيدِى الخُضوعِ له ، وصارَ شرفًا عظيمًا لهم ، أن يَمُدَّ الخَليفةُ يدَه لسُفرائِهم ليُقَبِّلوها .

وأرسلَ قُسطنطين ، صاحبُ قسطنطينيَّة ، إلى عبدِ الرَّحمنِ رُسُلَه ، يحملونَ إليه هَديَّة ، فتأهَّبَ النَّاصِرُ لاستقبالِهم ، فركِبَتِ العساكِرُ بالسِّلاحِ فى أكملِ

عُدَّة ، وزُيِّنَ قَصْرُ قُرطُبَةَ بأنواعِ الزِّينة ، وأصنافِ السُّتُور ؛ ولمّا اقتربَ الرُّسلُ من قُرطُبة ، خرجَ إلى لقائِهم القُوّادُ في العَدَدِ والعُدَّةِ والتَّعبئة ، فتلقَّوهم قائدًا بعدَ قائد ، ورحلَ النّاصِرُ من قصرِ الزَّهراءِ إلى قصرِ قُرطبة ، لدخولِ وفودِ الرُّومِ عليه ، فقعَدَ في بَهوِ المَجلِس ، قُعودًا رائعًا نبيلا ، وقعدَ على يمينِه وليُّ العَهدِ من بنيه : الحَكَم ثمَّ عبدُ اللّه ، ثم عبدُ العزيز ، ثمَّ الأصبَغ ، ثم مَروان ؛ وقعَدَ عن يسارِه المُنذِر ، ثم عبدُ الجبَّار ، ثم سُليمان . وحضَرَ الوزراءُ على مَراتِبهم يمينًا وشِمالا ، ووقفَ الحُجّابُ من أهلِ الخِدمَةِ من أبناءِ الوزراءِ والموالي ، وقدْ فُرِشَ صَحنُ الدّار بأبدَعِ البُسط ، وأجمَلِ الطَّنافِس ، وظُلِّلتْ أبوابُ الدّارِ وحَناياها بظُلَلِ الدِّيباجِ ورفيعِ السُّتُور ، ودخلَ الرُّسُل فهالَهم ما رأوا ، وقرُبُوا حتّى أدَّوا رسالَتهم ، وكان الكِتابُ في رَقٍّ مصبوغ لونًا

سَماوِيًّا مكتوب بالذّهبِ بالخَطّ الإغريقِىّ ، وفى داخِلِ الكتابِ مُدْرَجَةٌ مصبوغَةٌ أيضًا ، مكتوبةٌ بفضة ، فيها وَصْفُ هَدِيّتِه التى أرسَلَ بها وعدَدُها ، وعلى الكِتابِ طابَعُ ذهب ، وزنُه أربعةُ مثاقيل ، على الوجهِ الواحِدِ منه صورةُ المسيح ، وعلى الآخَرِ صورةُ قسطنطين الملِك ، وصورة ولده .

وأمرَ عبدُ الرّحمنِ الأعلامَ أن يخطُبُوا فى ذلكَ المَحفل ، ويُعَظّموا من أمرِ الإسلامِ والخِلافة ، ويشكروا نِعمَةَ اللّهِ على ظهورِ دينِه وإعزازِه ، فاستَعدُّوا لذلك .

قامَ محمَّدُ بنُ عبدِ البَرّ ، صنِيعَةُ ولِىِّ العَهدِ الحكَم ليَخطُب ، وكانَ يدّعِى من القُدرةِ على تأليفِ الكلامِ ما ليسَ فى وُسعِ غَيرِه ، وحاوَلَ أن يصِفَ ما رأى ، فهالَه وبَهرَه هولُ المَقام ، وأبّهةُ الخِلافَة ، فلم يهتَدِ إلى لفظَة ، بل غُشِىَ عليه ، وسقَطَ إلى الأرض .

وقيلَ لأبِى علىٍّ القَالِىّ ، صاحِبِ الأمالى والنّوادِر ، وهو حينئذٍ ضَيفُ الخليفةِ الوافِدُ عليه من العراق ، وأميرُ الكلام ، وبحرُ اللُّغة :

ـ قم فارفَعْ هذا الوَهْى .

فقام أبو علىٍّ القالىّ ، وقال :

ـ الحمدُ للّه ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على محمدٍ ﷺ ...

ثمَّ انقَطَعَ القولُ بالقَالىّ ، فوقفَ ساكِتًا مُفكّرًا ، لا ناسيًا ولا متذكّرا ، وراحَ عبدُ الرَّحمن يتلفَّتُ إلى الحَكمِ ولىِّ عهدِه ، ولاحَتِ الحَيرةُ فى وَجهِ الحكم ، وكادَ زِمامُ الأمرِ يُفلِت ، فقد وجَمَ العُلماءُ ، والتصَقَتْ ألسِنتُهم بحلوقهم ، وإذا بعالِم ينهض ، ويبدأ من المكانِ الذى انتهى إليه أبو علىّ ، واستمرَّ

يتدَفّق فى قولِه حتى قال :

ــ ألم تكنْ الدِّماءُ مسفُوكةً فحقَنهَا ؟ والسُّبُلُ مَخُوفَةً فأمَّنها ؟ والأموالُ مُنتَهبَةً فأحرزَها وحَصَّنها ؟ ألم تكُنِ البلادُ خَرابًا فعمَّرَها ؟ وثغورَ المسلمينَ مُهْتَضَمةً فحماها ونصرَها ؟ فاذْكُروا آلاءَ اللّه عليكُم بخلافَتِه ، وتلافِيَهُ جمعَ كلِمَتِكم بعدَ افتِراقها بإمامَتِه ، حتى أذهَبَ اللّه عنكم غيظكم ، وشَفَى صدُورَكم ، وصِرتُم يدًا على عَدُوِّكم ، بعد أن كان بأسُكم بينَكم .

وظَلَّ المُنذِرُ فى تَدَفُّقِه كأنّه الجَدوَلُ الرَّقْراق ، والنّاصِرُ يُصيخُ السَّمعَ إليه ، مُعجَبًا ببَلاغَتِه . وانتهى المحفَل ، فأقبَلَ الناصرُ على ابنِه الحكَم ، يسأله :

ــ مَن هذا الخطيب ؟

ــ هذا مُنذِرُ بنُ سعيدٍ البَلُّوطىّ .

فقال النّاصر :

ـ واللّه لقد أحسنَ ما شاء ، ولَئِن أخَّرنِىَ اللّهُ بعـدُ لأرفَعَنَّ من ذِكره ، فضَعْ يـدَكَ يـا حَكَـمُ عليـه واستخلِصْه ، وذكِّرنِى بشأنِه ، فما للصَّنِيعَـةِ مَذهَـبٌ عنه .

وخرجَ النَّاسُ يتحدَّثونَ عن رباطَـةِ جأشِ المُنذِر ، وثباتِ جَنانِـه ، وبلاغـةِ لسانِه ، ووَلاَّه عبدُ الرَّحمنِ قضاءَ الجماعة .

وبعثَ أوتونُ ملِكُ الألمـانِ رُسُلَه إلى عبـدِ الرَّحمـنِ النَّاصِرِ ، وقدِ اختارَ راهِبًا من دَيرِ غورز يُقال له جان ، لتضَلُّعِه في علمِ اللاَّهُوت ، ليكونَ ضِمْنَ سُفَرائِه . سارَ الرَّاهِـبُ جـانُ ماشِيًا علـى قَدَميـه إلى « فيـن » على نهرِ الرُّون ، ومنها ركِبَ في البحر إلى برشلونة ، التـى كـانت تابعـةً لفرنسـا ، وانتقـل منهـا إلى طُرطوشة ، وكانت أوَّل مدينة تخصُّ النَّاصر . فلمَّـا بلغَ سفراءُ ملكِ الفرنجة طُرطُوشَة ، وَأَذِنَ لهم عامِلُهَا بالمَسِيرِ فـى قُرطبـة ، انطلقُـوا فـى البـلاد ، وصـاروا يَـنْزِلُونَ ضيُوفًـا علـى أهـالى الأندَلُـس . فـأكرمُوا وِفَادَتَهم ، ممَّا جُبِلَ عليـه العـربُ من كـرم ، فبلغُـوا قُرطبة ، دون أنْ يتكلَّفُوا دِرهما واحدا .

وعَلِمَ النّاصِرُ بوصولِ وفدِ ملكِ الفِرنجة ، وبأنّ الرّاهبَ جان فى الوفدِ الرّسمِى ، وأنّه ما جاءَ إلاّ لإثارةِ جدَل دينىّ ، فبعثَ النّاصِرِ إليه :

ـ إنّه لا يليقُ أن يدخلَ مِلكَانِ عظيمان ، كالنّاصِرِ والإمبراطورِ أوتون ، فى جدَل دينىّ .

فلم يقبَلِ الرّاهبُ ذلك الرّأى ، فما تجشّمَ الصّعابَ إلاّ ليُعلِنَ رأيَه الدّينىّ . وركِبَ الرّاهِبُ رأسَه ، فجاءَه مُطرانُ قُرطبةَ ينصَحُهُ بتَرْكِ هذا العِناد ، فثارَ جان فيه ، وقال له :

ـ كفاكم ذُلاّ ، لقد رَضِيتُم بخِتانِ أولادِكم ، وامتَنعتُم عن أكلِ الخِنزيرِ لإِرضاء العرب ، فاذهب عنّى فلن أسمَعْ لك .

وعلِمَ النّاصِرُ بعنادِ الرّاهب ، وتشبُّثِه بإثارةِ الجَدَلِ الدّينىّ ، فبعثَ إليه :

ـ كنتُ قد بعثتُ أحدِ الأساقِفةِ سفيرًا عنى ،

فأنظرَهُ أوتونُ ثلاثَ سنوات ، لذلكَ أُنظِرُ سفيرَ أوتون تِسعَ سنوات ، فأنا أكبرُ من أوتونَ ثلاثَ مرّات .

ومشت سِفاراتٌ بينَ عبدِ الرّحمنِ النّاصرِ وأوتون ، انتهَت بأنْ أذِنَ النّاصِرُ للرّاهِبِ جان بمقابَلتِه ، فتقَدّمَ الرّاهب ، وقد فُرِشَتْ أمامَه مداخلُ القَصْرِ بالبُسطِ والدِّيباج ، فما زالَ يتقَدّمُ إلى أن وصلَ إلى البَهوِ الذى فيه الخليفة ، فوجَدَ الناصرَ جالسًا على سريرِ الخِلافَة ، فلمّا وَصلَ الرّاهبُ إلى مَجلِسِه ، قدّمَ عبدُ الرّحمنِ إليه باطِنَ يده ، تمييزًا له عن غيرِهِ ، فَقَبّلَها الرّاهب ، ثم أَمِرَ له بالجُلوس .

وتحدّثَ الرّاهِب ، فراحَ يتوسّطُ لدى الخَليفةِ لِوضْعِ حدٍّ لغاراتِ العربِ فى فرنسا وإيطاليا ، وأن تكُفَّ المُستعمَرةُ العربيّةُ فى جبالِ الألب ، عن شنِّ الغارةِ على البِلادِ المُجاورِة ، فوعَدَه النّاصِرُ خَيرا .

ومات النَّاصِرُ ، وقدْ خلَّفَ فى بيوتِ الأموال خمسَةَ آلافِ ألفِ ثلاثَ مرَّات ، وقد وُجدَ بخطِّ النَّاصِرِ أنَّ أيَّامَ السُّرورِ التى صَفَتْ له دونَ تكديرٍ ، يومُ كذا من شهرِ كذا من سنةِ كذا ، ويومُ كذا من كذا ، وعُدَّتْ تلكَ الأيَّامُ فكانت أربعةَ عشرَ يوما .

أربعةَ عشرَ يومًا هى كلُّ أيَّامِ السُّرورِ فى حياةِ خليفةٍ ضُرِبَ به المَثَلُ فى الارتقاءِ فى الدُّنيا ، وقد ملَكَ خمسينَ سنة ، وسبعَةَ أشهُرٍ ، وثلاثةَ أيَّام .